

رحلة مباركة مع القلب

حينما نبدأ هذه الرحلة الطيبة المباركة مع القلب فإن خير ما نتزود ونسترشد به في رحلتنا هو ما ورد عن الصفات والخصائص الكامنة داخل هذا القلب في :

- آيات كتاب الله (سبحانه وتعالى) - القرآن الكريم - ملحق (١).
 - وفي بعض من أحاديث رسول الله ﷺ - ملحق (٢).
- وإجمالاً للصفات والخصائص التي خزنها الله (سبحانه وتعالى) في القلب كما ورد ذكرها في آيات القرآن الكريم (وكما جاء بعض منها مرادفاً) في بعض أحاديث رسول الله ﷺ يمكن إظهارها كالتالي :

م	الصفة	م	الصفة
*	الطبع لحجب العلم	*	الرحمة والرأفة
*	المرض / الكفر والنفاق	*	الإيمان
*	التكذيب والجحود	*	الكفر
*	القسوة والغلظة	*	المرض
*	الحجب والإدخال	*	الطهارة والنقاء
*	الحب والتآلف	*	الفقه

الصفة	م	الصفة	م
الرغبة والهواية	*	البغض والكراهية	*
الفرع والهيبة	*	الخير والشر	*
الرقّة واللين	*	الاطمئنان والسكينة	*
الثبات	*	الإثم والمعاصي	*
الصبر واليقين	*	الميل والانحراف	*
الرفض والإباء	*	الهدى والحق	*
الغيظ والغضب	*	الرعب والخوف	*
الضيّق والوجد	*	النية	*
الريب والتردد	*	الهمة ضعفا وقوة	*
النفاق والشك	*	الندم والحسرة	*
الإغلاق والفتح	*	العلم	*
التصور والتخيل	*	الشوق والود	*
الأنفة والكبرياء	*	الخلو والفراغ	*
الصفاء والوضوح	*	الإدخال والإخراج	*
نور الإيمان	*	التصديق والتكذيب	*

م	الصفة	م	الصفة
*	السهو والانصراف	*	ظلمة الكفر
*	التقوى والفجور	*	الإنابة والإذعان
*	الرؤيا والعمى	*	الحقد والغش
*	الإشفاق والقلق	*	العداوة
*	الجهالة والغفلة	*	الغواية
*	السلامة من المرض	*	التعلق والزهد
*	الاشمئزاز والانقباض	*	الجزع والهلع
*	القصد والعمد	*	الغفلة
*	الخوف والأمن	*	الأمانة والخيانة
*	الفساد والصلاح	*	الأمل والتمنى
*	الغم والهم والحزن	*	مكان جميل أو قبيح

وهي خصائص وكما ورد ذكرها في آيات الله (سبحانه وتعالى) تشكل أنواعا من السلوك الذي يترجم في صور مختلفة من أقوال أو أفعال أو أعمال جميعها كان له من المعايير والمقاييس الداخلية الخاصة به والمسببات والدوافع الخارجية لتطبيق تلك المعايير والمقاييس لإظهار هذه الخاصية أو تلك في صورتها وطبيعتها الإلهية والتي ظهر بسببها هذا السلوك أو ذاك.

ومن هنا فإن التفكير والتدبر في قدرة الله (سبحانه وتعالى).. يشير إلى أن أى من هذه الصفات التى وردت فى كتابه الكريم إنما هى تتكون وتظهر بأساس علمى إلهى فيه ما فيه من الأسرار والقواعد والمكونات التى تُبنى معها تلك المعايير والمقاييس داخل هذا القلب.

وتلك المعايير والمقاييس فى داخل القلب قد تم ترتيبها كقاعدة وأساس من البيانات كمنظومة داخلية تستقبل مدخلات من المعلومات الخارجية عن طريق وسيط مدخل لهذه المعلومات.

وبناء على نوعية وطبيعة المدخلات تكون المؤشرات والنتائج المترتبة عليها تماما كما يحدث فى مراكز أبحاث الفلك أو الزلازل أو أية نوعية من مراكز الأبحاث. فمن المعلومات الخارجية التى تستقبلها الأجهزة العلمية عن طريق وسيط الإدخال إلى تلك الأجهزة تكون المؤشرات والنتائج.

ومن هذه البداية فإن الباحث الذى يتخذ من التدبر والتفكير منها أصيلا له.. يستطيع أن يقرب هذه الصورة الواقعية فى حياتنا العلمية والعملية ليجعل الشبه متطابقا من حيث المبدأ بين المركز البحثى والقلب.

فالقلب من الإنسان هو مركز الأبحاث الخاص به. والقلب يمثل هذا المركز البحثى شديد التركيب والتعقيد والذى يحتوى على أعظم وأوسع قاعدة بيانات على الإطلاق مما يجعله متفوقا على أعقد المراكز البحثية الأخرى التى نشاهدها فى حياتنا العلمية والعملية. وكيف لا وقد قال الله (سبحانه وتعالى):

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣١)

[البقرة.. آية ٣١].

وعلى ذلك فإن القلب هو أعظم مركز بحثي على الإطلاق من بين المراكز المتعارف عليها في الحياة وكيف لا وهو يحوى جميع قواعد البيانات [الأسماء كلها].. التى تمثل كل جذور العلم ومفرداته.. ويحوى كافة الأجهزة للانتفاع من تلك الأسماء والتى جعل الله (سبحانه وتعالى) الإنسان يحاكي البعض منها ولا يزال. فكانت الأجهزة مثل الترمومتر والتليسكوب والميكروسكوب والاستشعار عن بعد.. وجميع تلك الأجهزة التى ابتكرها الإنسان إنما هى من قاعدة بيانات [الأسماء كلها] وما هى إلا لتحاكى مثلها مما هو أكثر فاعلية وعمقا وتعقيدا.. وكيف لا وهى من تلك الأجهزة الخاصة بالمركز البحثي الأكثر اتساعا وتخصصا وشمولا.. إنه «القلب».

«القلب».. هذا المركز البحثي الأكثر تقدما على الإطلاق عن سائر المراكز البحثية الأخرى وما يحويه من جميع قواعد البيانات وما يتعلق بها من جميع أجهزة الرصد والقياس والاستشعار.. جميع ذلك ينتظر المستخدم الخبير أو وسيط الإدخال والاستنباط.. وفى لغة البحث العلمى فإن جميع تلك البيانات والأجهزة إنما تنتظر الباحث والمستكشف.. فمن يكون؟.. من يكون «هذا الباحث أو ذاك المستكشف» ليبحث ويستكشف فى [الأسماء كلها] الموجودة فى هذا المركز؟

العلاقة بين «العقل والقلب»

ومع بداية الطريق الصحيح الذى نسيرفيه تحقيقا لرحلتنا الطيبة المباركة مع القلب.. فهذا الطريق الصحيح هو «البرهان والتحقق» من أن القلب هو محل العلم. ولكن الباحث المحقق لا يغفل عليه أن يتساءل.. ما دور العقل أو المخ الذى هو فى الرأس؟ وكما ورد فى آيات الله (سبحانه وتعالى) فإن دور العقل وكما هو واضح من معناه حيث يقال:

«عقل الرجل الناقاة»... أى جعلها تقف عند موضع قد حدده لها فالعقل إذا معناه الرباط أو المنع أو التثبيت.. إلى غير ذلك مما يفيد السيطرة على الشئ، والتحكم فيه والمحافظة عليه من الضياع أو التية على غير هدى.

ومن هنا فإن الباحث المتدبر يصل إلى نتيجة أن «العقل» هو مركز التحكم والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن الباحث عن الحقيقة ماذا يعنى مركز التحكم؟ والتحكم فى ماذا؟

والإجابة..هى.. أن «العقل» هو مركز الاستكشاف والتحكم لما فى داخل القلب من علم.. أو بمعنى آخر «العقل» هو القناة الشرعية للوصول إلى العلم الذى هو فى القلب..... وبمعنى آخر.. إلى أن نهتدى بإذن الله (سبحانه وتعالى) إلى الصواب والاقتراب من الحقيقة.. «العقل» هو طريق الاستكشاف لما فى القلب من العلم.

ومن الممكن أن نطلق على «العقل» أنه هو «المستكشف» لما في القلب أو «الباحث» عن الحقيقة من خلال العلم الذى فى القلب. هذا المستكشف وهذا الباحث يريد أن يجد ضالته حتى إذا وجدها عقلها وتحفظ عليها ليمنعها من التيه أو الضياع. ومن خلال خبرة الباحثين فى مجال الأبحاث العلمية فإن الباحث حينما يريد أن يصل إلى نتيجة من بحثه فإن عليه أن يمر بمراحل عدة وهى:

أولاً: تحديد موضوع البحث.

ثانياً: إذا حدد موضوع البحث.... يبدأ فى مراجعة عمل ما تم كتابته من قبل حول هذا الموضوع ليعلم نتائج ماسبق من أبحاث - حول هذا الموضوع - من الباحثين الآخرين.

ثالثاً: تحديد منهج البحث الخاص به ليصل إلى نتيجة متقدمة تضيف إلى نتائج الأبحاث السابقة شيئاً جديداً.

رابعاً: استخلاص النتيجة الجديدة التى تم التوصل إليها لتكون علامة واضحة ويتم تدوينها والحفاظ عليها للاستفادة منها مستقبلاً. وهذا تماماً ما يفعله «العقل» تلقائياً.. حتى دون أن يدري صاحبه أنه يفعل ذلك... أو يفعل كل هذه الخطوات أو تلك المراحل المعقدة.

فالعقل إذا هو أداة التحكم والاستكشاف فيقوم باستكشاف ما بداخل «القلب» من جذور العلم المختلفة التى جعل الله «القلب» محلاً لها.... ويقوم العقل أيضاً باستكشاف ما يراه من أحداث فى البيئة المحيطة من خلال مراكز القلب الاستكشافية المختلفة من القياس والمناظرة والتخيل والظن والتوهم إلى غير ذلك من الخصائص الاستكشافية التى وهبها الله (سبحانه وتعالى) للقلب.

فالعقل يتحكم فيما تم تخزينه من العلم فى داخل القلب ليستخرج مايناسب «حل المشكلة» التى تعرض له فى البيئة الخارجية المحيطة به لكى يتعامل معها بما يحفظ له الوصول إلى إيجاد حل لهذه المشكلة .
 فحينما لا يصل.. فإن طبيعته و خاصية أداة التحكم بداخله...
 تحاول التحكم مرة أخرى وعقل ما هو مناسب لحل تلك المشكلة...
 حتى إذا ماتوصل إلى حل لها وخرج منها مطمئنا.. هنا وعند هذه اللحظة تولدت عنده تجربة ناجحة، وفى حالة أخرى تجربة غير ناجحة... ومن هذه أو تلك فقد وصل إلى نتيجة.. تلك النتيجة تكون معها «معرفة».. وهذه «المعرفة».. تكون لبنة وأساسا من أسس العلم الذى يتعلمه الإنسان فى حياته على الأرض.

ومن كثرة التجارب يكون العلم فى نمو مطرد لدى بنى آدم لتتحقق إرادة الله (سبحانه وتعالى) فى خلافته على الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[البقرة.. آية ٣٠].



ماهية «العلم» الذى جعل الله (سبحانه وتعالى) القلب محلاً له

أما العلم الذى جعل الله (سبحانه وتعالى) القلب محلاً له - فيجتهد أهل العلم والصلاح فى معرفة كيفية تخزينه من القلب... هؤلاء العلماء يجتهدون حتى فى معرفة.. «ماهية» هذا العلم.

هل هذا العلم... هو «علم فطرى»؟... أى «علم ملقن»... أم هل هذا العلم... هو «علم تجريبى»؟... أى مكتسب بالتجربة...

إلى غير ذلك من ألوان التساؤلات التى يحار فيها ويعى بها أهل العلم والصلاح ولكن المجتهدين والباحثين من هؤلاء يجدون أن عليهم أن يبدأوا تسلسلاً يمهد لهم الطريق فتسهل عليهم المهمة.

وهذا التسلسل يبدأ بتصنيف المخلوقات.. فإن هذا التصنيف يوضح أن المخلوقات فى إطارها العام تنقسم إلى الأنواع الآتية:

أولاً: الملائكة - الجن - الإنس

وكل من الملائكة والجن والإنس تشكل مجموعة من المخلوقات.

ثانياً: الحيوان - النبات - الجماد

ومن هنا يرى أهل العلم والصلاح أن هناك نوعين للعلم بصفة عامة يتوافق مع تصنيف هذه المخلوقات فالنوع الأول من العلم هو:

العلم التلقيني.

وهذا العلم يُلقن من الله (سبحانه وتعالى) إلى المخلوق تلقينا فلا يزيد ولا ينقص ولا يتطور مع الوقت وهذا النوع من العلم إنما هو لجميع المخلوقات على الإطلاق ماعدا صنفا واحدا من المخلوقات ألا وهو «الإنس».

أما «الإنس» فقد شاءت حكمة الله (سبحانه وتعالى) أن يكون العلم الخاص به إنما هو النوع الثاني من العلم وهو:

العلم التجريبي.

وهذا العلم يزيد وينقص ويتطور مع الزمن.

فالباحث المتدبر الذي يعلمه الله (سبحانه وتعالى) حيث يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة.. آية ٢٨٢].

هذا الباحث... يصل من خلال بحثه وتدبره وتأملاته في خلق الله (سبحانه وتعالى).. أن جميع المخلوقات ماعدا الإنسان لها علم من نوع واحد.. ألا وهو «العلم التلقيني».. فالجماد والنبات والحيوان كل هذه الأَطوار.. والأَطوار الأخرى من الجن وكذلك الملائكة... كلها جميعا لها هذا النوع من العلم.. وهو العلم التلقيني.

ومعنى علم «تلقيني» أن الله (سبحانه وتعالى) يلقنه للمخلوق تلقينا ومن هذا التلقين يهتدى المخلوق إلى الهيئة والنسق التي يكون عليها في حياته في هذا الكون.

حيث يجد الباحث المدقق أنه حينما سأل فرعون موسى (عليه السلام):

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ. ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ ﴾

[طه.. آية ٤٩ - ٥٠].

فهذا الخلق كل على هيئته وصورته قد أعطى الهداية التي هي العلم التلقيني الذي به يدبر معيسته ووظيفته في هذا الكون.

و«الجن»... وما يعلمون من سحر أو أعمال يقترفونها إنما هي بعلم تلقيني لا يزيد ولا ينقص ولا يتطور مع الوقت وحتى الملائكة.. و«الملائكة المقربون».. الذين قد يصل علمهم إلى نطاق لا يعلم مداه إلا الله (سبحانه وتعالى).. الذي منحهم إياه.. فإن هذا العلم مهما بلغ من اتساع.. أو عمق.. أو تعقيد فإنه «علم ملقن»..... لا يزيد ولا ينقص ولا يتطور بمرور الوقت أو الأحقاب.

ويرى الباحثون.. أن الدليل على ذلك أنه مع مرور الأزمنة والأحقاب و منذ خلق الله (سبحانه وتعالى) هذه المخلوقات... فإن أيا منها لم يطرأ عليه تغيير في حالته أو في أسلوب حياته منذ أن خلقه الله (سبحانه وتعالى) وإلى أن تقوم الساعة.

فلم يُرَ عالم النبات... قد تغير عن حالته ووظيفته منذ خلقه الله (سبحانه وتعالى)... وكذلك عالم الحيوان... فلم يُرَ أنه تطور في أساليب حياته التي خلقه الله (سبحانه وتعالى) عليها وحتى الآن..

وكذلك عالم الجن..... وهكذا مما يعطى دليلا قاطعا أن العلم الذي منحه الله (سبحانه وتعالى) لهذه المخلوقات إنما هو «علم تلقيني» مهما كانت درجة عمقه واتساعه مثل درجة علم «الملائكة المقربين».

أما العلم الذى أعطاه الله (سبحانه وتعالى) بنى آدم فإنه «علم تجريبي».. قد وضع الله (سبحانه وتعالى) جذوره وأساسه فى قلب الإنسان ممثلا فى آدم و بنيه.

وقد جعل الله (سبحانه وتعالى) هذا العلم قابلا للتطور حينما يتفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة به وتتولد التجارب من هذا التفاعل ومن هذه التجارب تصير المعارف التى هى أساس الألوان متنوعة من العلم. وهذه الألوان من العلم وهو ما يعرف بالفروع أو التخصصات العلمية التى تطورت وتشعبت لتخرج لبنى آدم الآن صنوفا من المخترعات التى جعلته يسير على الأرض ويطير فى الهواء ويحلق فى الفضاء ويستريح فى كواكب أخرى.. وسوف يستمر هذا التطور إلى أن تقوم الساعة بتحقيقا لإرادة الله (سبحانه وتعالى) فى خلافة بنى آدم على الأرض.

ومن هنا فإن الباحث الذى يدقق ليصل إلى فرق واضح بين علم الإنسان التجريبي وبين علم سائر المخلوقات الأخرى التلقيني... فإنه سرعان ما يجد هذا الفرق واضحا جليا فى أول تجربة على الأرض وهى سفك الدم الذى وصفت به الملائكة الإنسان حينما علمت من الله أنه سيجعله خليفة له (سبحانه وتعالى) على الأرض فردت قائلة ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

[البقرة.. آية ٣٠].

فسفك الدماء هذا تم لأول مرة على الأرض حيث قتل أحد بنى آدم أخاه فندم القاتل وتعلم من هذه التجربة أنه أصبح من الخاسرين لأن هذا القتل يستوجب أنه من أهل النار وكان من النادمين.. ثم استتبع هذه التجربة.. التى كانت تجربة مليئة بالحسرة والندم... تجربة أخرى وهى كيف يوارى سوءة أخيه..

وهنا يبعث الله غراباً في نفس موقفه ويريد أن يوارى غراباً آخر ميتاً..
فرأى القاتل من هذا الغراب ما علمه كيف يوارى أخاه في التراب...
وتعلم هو... وتعلم بنو آدم من بعده طريقة دفن الموتى.

وهكذا فإن العلم الذي أودعه الله بنى آدم إنما هو علم تجريبي قد
خزن جذوره وأساسه في قلبه وجعله (سبحانه وتعالى) ينمو ويتطور
ويظهر حين الحاجة إليه عند مواجهة أحداث البيئة المحيطة به.

ويصل الباحثون إلى أن الله (سبحانه وتعالى) قد خزن العلم في قلب

آدم وبنيه من بعده على قسمين :

القسم الأول : «علم الحساب».

القسم الثاني : «علم الفطرة».



القسم الأول:

«علم الحساب» $2 = 1 + 1$

يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾
[يونس.. آية ٥].

والباحثون المدققون من أهل العلم لا يصعب عليهم الوصول إلى نتيجة أن هذا العلم.. «علم الحساب».. قد جعله الله أساساً لسائر العلوم الدنيوية التي بها ومعها وعلى أساسها يعمر بنو آدم هذه الأرض ومن الممكن أن يسمى هذا العلم «العلم الدنيوي» ويذهب البعض إلى تسميته «علم السطح».... لماذا؟

لأن هؤلاء المدققين يرون أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل هذا القسم من العلم... «علم الحساب» على مكان سطحى من القلب..... لماذا؟
والجواب... ليطلع عليه المؤمن وغير المؤمن حتى إذا قعد المؤمن بهمته عن طلب العلم واجتهد غير المؤمن فى طلبه تستمر حركة التقدم العلمى لتستمر معها حركة العمران على الأرض على النحو الذى يراه ويسجله الملاحظ والمتابع لمسيرة آدم وبنيه على هذه الأرض منذ أن هبط آدم وحواء عليها ليسكنوا فيها لتكون مقراً لهما ومساراً لحركة أبنائهما عليها.

وما حدث نتيجة لذلك من تجارب وأحداث يتطور معها علم بنى آدم وقد كان هذا التطور سببا فيما توصل إليه من أدوات وأساليب تساعد على الحياة فى هذه الأرض ولتعميرها تحقيقا لإرادة الله (سبحانه وتعالى) أن يكون خليفة له على هذه الأرض.

حيث نجد أن التطور العلمى أصبح الآن على نحو كبير من العمق والتعقيد وما صاحب ذلك من اختراعات وابتكارات تسهل حركة بنى آدم على الأرض بل تصل بهم إلى الفضاء المحيط بها ليستكشف بنفسه من آيات ربه (سبحانه وتعالى) فى هذا الكون المحيط بهذه الأرض.

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (٣٧)

[الأنبياء.. آية ٣٧].

ومن هنا نجد أن من أهل العلم والبحث من يعتقد أن علم الحساب هو أساس كل العلوم الدنيوية حتى العلوم النظرية واللغوية فإن لها من القواعد والإحصاءات الخاصة بها ما يجعلها جميعا تقوم على أساس من حساباتها الخاصة بها لكى تنمو وتتطور فكل علم على الإطلاق له أصوله وقواعده أى حساباته الخاصة به التى بها يتشعب ويزداد عمقا وتعقيدا ليوكب التطور المطلوب منه ليسير متوازيا مع تطور سائر العلوم الأخرى حتى لا يتخلف عنها ويصاب بالضمور أو الاضمحلال.

ومما لا يخفى على الباحث المدقق أن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل «لعلم الحساب» قانونا أساسيا وهو أن الواحد إذا أضيف إلى الواحد فإن المجموع سوف يساوى اثنين $2 = 1 + 1$

والاثنان إذا أضيف إليهما واحد آخر فإن المجموع سوف يساوى ثلاثة وهكذا.. حيث تتفرع من هذه القاعدة سائر الحسابات وما يستتبعها من معادلات ونظريات تؤسس بها ومعها العلوم الدنيوية باختلاف أنواعها وتخصصاتها.

ولكن الباحث المتدبر ينبغي ألا يتوه في هذه التعريفات ولكنه يقف عند مفهوم ومغزى «علم الحساب»... فهذا العلم بالنسبة للباحث الذى يدقق فيه يعنى أنه:

علم التحديد.

أى إن هذا العلم يتعلم منه بنو آدم أن «المقدمة المحددة لا بد أن ينتج منها نتيجة محددة».

ومن هذه المقدمات المحددة:

الأولى: النزول فى بحر عميق دون معرفة العوم وعدم وجود أدوات للنجاة.

الثانية: إلقاء ورقة فى النار.

فلا بد لهاتين المقدمتين من النتيجتين التاليتين:

الأولى: الغرق لمن يفعل ذلك.

الثانية: احتراق تلك الورقة.

وهكذا من مختلف المقدمات التى تؤدى إلى مختلف النتائج المترتبة عليها.. مما يلمسه الباحث وغيره فى هذه الحياة.

القسم الثانى:

«علم الفطرة»

لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شىء قدير.

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة أو «أم الكتاب»:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣
مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾

[سورة الفاتحة - سورة ١ - عدد آياتها ٧].

فهذه السورة الكريمة وهى - أم الكتاب - تحتوى على أهم أسس هذا العلم الذى هو «علم الفطرة».. كما يروق للباحثين من أهل العلم والصلاح تسميته فأسس هذا العلم هى:

□ الحمد لله (سبحانه وتعالى).. هو (سبحانه وتعالى).. الذى يحمد فى السراء والضراء.

□ رب العالمين.. فهو (سبحانه وتعالى).. رب العالمين.. رب كل عالم وكل مخلوق.

□ الرحمن الرحيم (سبحانه وتعالى).. الذى وسعت رحمته كل شىء.

□ مالك يوم الدين.. هو (سبحانه وتعالى).. مالك يوم الدين.. يملك البعث والحساب

□ إياك نعبد... هو (سبحانه وتعالى).. الذى يعبده المخلوق..
فلا يعبد سواه.

□ وإياك نستعين.. الله (سبحانه وتعالى).. المستعان به فى كل أمر.

□ إهدنا الصراط المستقيم.. هو (سبحانه وتعالى).. الذى يهدى إلى الصراط
السوى.. المستقيم..

وهذا الصراط السوى المستقيم.. للفائزين الذين فازوا بنعمة من الله
(سبحانه وتعالى) عليهم.. أما غيرهم فهم المغضوب عليهم وهم الضالون
عن هذه الهداية الإلهية.

وكذلك.. فإن الله (سبحانه وتعالى).. هو الله الذى لا إله إلا هو...
الملك.. القدوس.. السلام.. المؤمن.. المهيمن.. العزيز.. الجبار.. المتكبر..

الخالق.. البارئ.. المصور.. هو (سبحانه وتعالى).. له الأسماء الحسنى..

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[الحشر.. آية ٢٤]

فالباحث المدقق يجد أن علم الفطرة مبني على أساس واحد وهو:

«الله واحد لا شريك له» فهو (سبحانه وتعالى).. الخالق البارئ المصور

وهو على كل شيء قدير وقد أحاط بكل شيء علما.

وبهذا التفرد فى الألوهية أخذ العهد على بنى آدم وهم فى أصلاب

أبائهم وأمهاتهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا

غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف - ١٧٢].

ويذهب بعض أهل العلم والصلاح إلى أن الله قد خزن هذا العلم في «قلب» القلب لمكانته وأهميته كجوهرة ثمينة لا بد أن توضع في مكان أمين وفي داخل صندوق للحفاظ عليها لنفاستها وعلو قيمتها.

ومن هنا يذهب البعض من العلماء إلى تسمية هذا العلم: «علم الفطرة» أو «علم الأساس»... لأن على أساسه خلق الله (سبحانه وتعالى) الجن والأنس ليعبدوه.. حيث يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾... [الذاريات..٥٦].

وحكمة الله البالغة قد جعلت مكان هذا العلم.. «علم الفطرة».. أو «علم الأساس» في قلب السلب.. لماذا...؟

وكما يذهب البعض من أهل العلم والصلاح... فإن الله (سبحانه وتعالى) قد خزن علم الفطرة في قلب القلب حتى لا يطلع عليه إلا صنف مخصوص من بنى آدم أو الإنس... وكذلك الجن.. هذا الصنف المخصوص... هم أصحاب القلوب السليمة.

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْمَعَنَّ نَقْرًا مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قَوْلَ أَنَا عَجَبًا ﴿١﴾﴾

[الجن - ١].

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾...

[الجن - ٢].

﴿وَأَنآمِنَا الصَّالِحُونَ وَمِنَ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَارِقًا قِدَادًا ﴿١١﴾﴾...

[الجن - ١١].

﴿وَأَنآ لَمَّا سَمِعْنَا أَلْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ؕ فَلَا يَخَافُ بَحْصَآ وَلَا رَهَقَآ ﴿١٣﴾﴾...

[الجن - ١٣].

﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَنِسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا ﴿١٤﴾ ... ﴾

[الجن - ١٤]

﴿ وَأَمَّا الْقَنِسُطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ... ﴾

[الجن - ١٥]

وفيما ورد من صالح الدعاء على قلب ولسان نبي الله إبراهيم الخليل (عليه السلام):

﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ... ﴾

[الشعراء.. ٨٧.. - ٨٩]

فالقلب السليم.. كما يرى أهل العلم والصلاح.. كغرفة مضيئة.. فإن الداخل فيها يرى ما في جنباتها وأركانها من أشياء.. أما القلب غير السليم.. فهو كغرفة مظلمة.. فإن الداخل فيها لا يرى ما فيها أو كصندوق مغلق لا يعلم ما بداخله..

وعند هذا الحد وفيما ورد.. يقول الله (سبحانه وتعالى) في حديثه القدسي.. «ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن».. وفي هذا الحديث القدسي إشارة مبهرة إلى قيمة «قلب» العبد المؤمن... فهو يسع ما لا يتسع إليه اتساع الأرض ولا السماء... لماذا؟ لأن هذا القلب يحمل صفات الله (سبحانه وتعالى).

الرحمن.. الرحيم.. الملك.. القدوس.. السلام.. الخالق... الباري.. المصور... ويستشعر ما فيها من صفات الكمال والجلال وطلاقة «العلم والقدرة»... فإن هذا «القلب» حينما يحملها في داخله بقدرة

من الله (سبحانه وتعالى) ويسر منه (سبحانه وتعالى)... فإنه بحمل تلك الصفات التي لها من ثقل الجلال وأسرار العلو والكمال ما تنوء بحمله السماء والأرض والجبال.

وهذا ما يشير إلى أن الله (سبحانه وتعالى) قد اختار آدم وبنيه لخلافته (سبحانه وتعالى) على الأرض وحمل أمانة تلك الخلافة التي حينما عرضها الله (سبحانه وتعالى) على السموات والأرض والجبال فإنهن جميعا قد أبين أن يحملنها وأشققنا منها.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَنُوءًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

[الأحزاب .. ٧٢]

وهذه السعة لحمل تلك الصفات الإلهية... لا يكتمل الغرض منها إلا إذا كان هذا القلب مؤمنا.. لأنه في هذه الحالة يكون بمثابة المخزن المضيء بنور الإيمان... فهذا «النور»... يتمكن معه الداخل لهذا المكان أن يرى من جنباته وأركانه كل شيء موجود به.

فيا سعد هذا القلب المؤمن حينما يكون الموجود به صفات الله العلى القدير الواحد الأحد الذى ليس كمثلته شيء.. أما القلب غير المؤمن فيا شقاء هذا القلب من ظلمة الكفر... فهذه الظلمة تحجب معها تلك الصفات فيظل بعيدا عن أسرارها... بعيدا عن نفحاتها.

يقول الله (سبحانه وتعالى):

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢٥٧)

[البقرة .. ٢٥٧]

فالكفر.. ظلام فى القلب.. يحجب معه أنوار صفات الله وآياته
(سبحانه وتعالى)... والإيمان نور فى القلب... تظهر معه صفات الله
وآياته (سبحانه وتعالى).

وإلى هذا القدر يصل البعض من الباحثين من أهل العلم والصلاح إلى
إيجاز وتلخيص لأهم تلك البنود التى أخذ الله (سبحانه وتعالى) بها
العهد على بنى آدم وهم فى أصلاب آبائهم وهذه الأسس الموجزة كما
يراهنا أهل البحث من أهل العلم والصلاح هى:

□ يا عبدى إنى أنا الله خالقك... وخالق كل شىء فى هذا الكون
من حولك.

□ يا عبدى إننى قد أودعت قلبك قطرة من علمى لتعمر بها هذه الأرض
لتتحقق إرادتى لك بخلافتى عليها

□ يا عبدى لا تبارز بعلمك حكمتى فإنك لن تصل بعلمك إلى حكمتى...
فإن أمرتك فاتبع وإن نهيتك فانته.

□ يا عبدى إنى قد أودعت فى قلبك فطرتى.. لتسير بها فى طريق
عبادتى فما خلقتك وخلقت كل شىء فى هذا الكون إلا لعبادتى.

﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ...

[الروم - ٣٠]

□ يا عبدى توكل على بفطرتك حق التوكل فإن توكلت على كفتك مما
تحذر ومما تخاف.

□ يا عبدى إن أمرى بين الكاف والنون... فإنى أقل للشىء.. «كن»..
فيكون.. حينئذ لاينفع مع «أمرى»... حساب أو قانون.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ..

[يس - ٨٢]

مما سبق من بنود.. هي أهم قواعد «علم الأساس».. «علم الفطرة»
كما يراها الباحثون من أهل العلم والتقوى... وكما سبقت الإشارة إلى
ذلك فإن الله (سبحانه وتعالى)... قد جعل العقل أداة للاستكشاف
والبحث والتنقيب.

حيث يقوم العقل بالتجول والاستكشاف حول وداخل القلب
ليتعرف.. ما عليه.. وما فيه من أسس وجذور العلم التي وضعها وأودعها
الله (سبحانه وتعالى) على القلب وفي داخله.

ومن هنا يرى الباحثون المدققون أن العقل يستكشف من القلب
ما يراه.. أما ما لا يراه فإنه لا يستطيع أن يصل إليه ولا أن يستكشف
ماهيته.. وهنا تكون بداية القضية..



التدبر فى أسرار «علم الفطرة»

الهدف من التدبر فى أسرار «علم الفطرة».

هدف التدبر فى أسرار «علم الفطرة».. هو إظهار تلك الحقيقة المبهرة
ألا وهى:

«علم الفطرة» هو الأوسع والأعمق من «علم الحساب».

بل إن الفكر الأدق والأكثر قربا من نظريات «علم الحساب» يعرف
أن هذا العلم هو فى حقيقته كمية محددة بالنسبة إلى كمية أخرى غير
محددة (لا نهائية) ألا وهى «علم الفطرة». ومن ثم فإن المعادلة الحسابية
البيسطة والشهيرة التى تحدد:

«قيمة النسبة بين كمية محددة إلى الكمية غير المحددة (اللانهاية)
تساوى صفرا».

ولغتها الرقمية:

أية كمية محددة

$$\text{صفر} = \frac{\text{ملا نهاية } (\infty)}{\text{ملا نهاية } (\infty)}$$

وهذا يعنى أن «علم الحساب» الذى يمثل جزءا من العلم
أو الأسماء كلها التى أودعها الله (سبحانه وتعالى) حول وفى داخل
قلب آدم وبنيه من بعده.. هذا العلم إنما هو قطرة من بحار علم الله
(سبحانه وتعالى).

وهذا يدل على أن قيمة النسبة بين «علم الحساب» إلى أسرار علم الله (سبحانه وتعالى) إنما تساوى صفراً لأنها نسبة القطرة من الماء إلى المحيط الذى يحتويها.

ولهذا فإن «علم الحساب» لا يستطيع إلا تحديد العلامات والدلائل المتاحة له من خلال قوانينه وما يتبعها من معادلات وقياسات.

أما تلك العلامات والدلائل الأوسع نطاقاً وعمقاً فإن «علم الحساب» لا يستطيع تحديدها أو الوصول إليها من خلال قوانينه وقياساته وهنا يصل الباحث المتدبر أن هناك مناطق إيمانية وغيبية خارجة عن نطاق التحديد بتلك القوانين الحسابية، وإنما تتصل تلك المناطق الإيمانية والغيبية مباشرة بأسرار القدرة الإلهية.

وعند تلك المناطق الإيمانية والغيبية تظهر حالات الطاعة أو العصيان وحالات التصديق أو النكران وعند هذه المنطقة تهيمن حالة القلب لتظهر تلك الحالات، وهذا ما يفسر للباحث مثلاً قد يراه فى عالمه الواقعى وهذا المثال هو:

كيف أن عالماً من الكبار فى مجال العلم الحسابى أيا كان نوعه أو تخصصه ومع هذا العلم الغزير حسابياً والذى قد يحصل عليه هذا العالم بجده واجتهاده طوال حياته العلمية المتميزة.. ثم يكون من هذا العالم أنه لا يؤمن بشيء غيبى أو يؤمن بطريقته الخاصة فيعبد النار أو الشمس أو نوعاً من الحيوان.

وهذا المثال الذى قد يُرى واقعياً فى هذه الحياة إنما يحل لغزه تلك الحالة التى عليها القلب حيث يجىء هذا المستكشف الماهر

«عقل هذا العالم» إلى قلبه فيجد الطبيعة في منطقة الاستكشاف لا تسمح بأى عمل من الأعمال الاستكشافية في هذا الوقت فيعود المستكشف من حيث أتى دونما أن يعلم شيئا عن حالة المكان أو طبيعته.

وهذا المثال أيضا يوجه الباحث كيف أن عالما آخر من الكبار في مجال العلم الحسابي أيا كان نوعه أو تخصصه وفي وقت يرى أية مبهرة تدفعه إلى هذا الإيمان الغيبي و يؤمن على الفور ويخرج مما كان فيه من حالة التيه والضلال.

وتحقيقا للهدف والمراد من توضيح الفرق بين «علم السطح» أو «علم الحساب» و«علم الأساس» أو «علم الفطرة». يجب عرض الأحداث التاريخية التالية.

